

المحاضرة 8: المدرسة البغدادية - أعلامها

تمهيد:

نشأ النحو في أحضان البصرة والكوفة، كما سبق أن ذكرنا، فازدهر فيهما وتطور حتى بلغ أوجه، فلئن بدأ على أيدي نحاة البصرة، فقد كان نحاة الكوفة منافسين أقوىاء لهم، حتى أنك لا تذكر رجلا هنا إلا وتذكرت نظيره هناك، فإن قلت الخليل قلت مقابله الرؤاسي، وإن قلت سيبويه مثلا لوح لك الكسائي من بعيد، وإن ذكرت المبرد الذي تصدر فيما بعد إمامة البصرة لا بد لك من ذكر ثعلب الذي رأس علماء الكوفة، لكن النحو في شبه الجزيرة العربية لم يبق مقصورا على هذين الإقليمين، حيث إنه نما وازدهر في موضع آخر من العراق، وهو بغداد التي كانت عاصمة للخلافة العباسية.

وسنكشف في هذه المحاضرة عما يسميه بعض الدارسين بالمدرسة البغدادية، فهل تطور النحو يا ترى على أيدي علماء بغداد لدرجة أن شكل أصحابه مذهباً خاصاً بهم، فكونوا مدرسة نحوية مستقلة، أم أن النحو ظل على منهجه القديم عند البصريين أو الكوفيين؟.

1- النشاط النحوي في بغداد:

بقيت بغداد عاصمة الخلافة العباسية على مذهب نحاة أهل الكوفة، حيث استقر بها الكسائي والفرّاء وثعلب وأبو بكر ابن الأنباري من نحاة الكوفيين، إلى أن دخلها المبرد إمام البصريين، سنة (247هـ)، واستقر بها إلى أن وافته المنية سنة (285هـ)، وكان فيها في تلك الفترة إمام الكوفيين ثعلب، فجرت بينهما المناظرات النحوية التي انبهر بها أهل بغداد فحضروها وتتبعوها وفقهوها، ولما كان التفوق من نصيب المبرد غالباً، نظراً لبراعته في فنون القول، وامتلاكه الحجة والقدرة على الإقناع، بدأ بعض مريدي النحو في بغداد يلتفتون إلى المذهب البصري، فنشأ بذلك جيل جديد من تلاميذ العالمين الجليلين، ينتخب من رأي

المذهبيين القائمين في دراسة النحو على أساس مناقشة الآراء والاجتهاد فيها، واستنباط آراء جديدة أحيانا. (1)

وقد ازدهر هذا النشاط الذي يأخذ فيه نحاة بغداد من نحو البصرة والكوفة، فيتخيرون من هذا وذاك ما يراه كل واحد منهم مناسبا لتفكيره ومنهجه، وكان ذلك أواخر القرن الثالث، وبدايات القرن الـ الرابع، حيث ازدهرت دراسة النحو في بغداد وفق منهج جديد يقوم على الانتخاب من آراء المدرستين، وهو منهج لم يألفه نحاة البصرة والكوفة، الذين اعتادوا الاختلاف في الـ رأي حتى بلغ بهم الأمر أحيانا أن يختلفوا لمجرد أن الفريق الآخر قد قال برأي ما.

ورغم أن الزبيدي وابن النديم من القدامى قد رفضا تسمية النحو في بغداد بالمذهب، لأن نحاة هذا البلد لم يقدموا جديدا، بل ارتكبوا في درسهـم على خـلط المذهبيين، إلا أن كثيرا من الدارسين المحدثين من نظر إلى نحاة بغداد بعين الفخر، وعدهم أصحاب مدرسة نحوية مستقلة، فعـبده الـراجحي مثـلا يقول... "وما كاد القرن الرابع يبدأ حتى أخذت مدرسة بغداد تتميز بمنهجها الخاص، ولم يكن هذا المنهج جديدا من حيث الأسس أو طرائق الاستنتاج، ولكنه منهج ينبني على الانتقاء من المدرستين. (2)

وقد تميزت دراسة النحو في بغداد نظرا لمنهجهم المعتمد بجملة من الميزات نذكر منها: (3)

– الانتخاب من آراء البصريين والكوفيين.

– غلب على بعض البغداديين الميل إلى الرأي الكوفي، وغلب على بعضهم الآخر الميل إلى الرأي البصري، في حين خلط بعضهم بين المذهبيين وكان ميله أشد إلى البصريين.

(1) – علي القصيباتي، تاريخ المدارس النحوية، مكتبة ابن الدماكي، دمشق، (د ت)، ص 7.

(2) – عبده الراجحي، دروس في المذاهب النحوية، دار النهضة العربية، بيروت، 1980، ص 159.

(3) – خضر موسى، النحو والنحاة، المدارس والخصائص، عالم الكتب الحديث، بيروت، ط1، 2003، ص 254.

- تأثر بعض البغداديين بألفاظ أهل المنطق والفلسفة، وبمصطلحاتهم المختلفة كالعرض والجوهر والعلة، وعلة العلة...

- الاهتمام بالأمثلة الموضوعية والإكثار منها للتدريب على مسائل النحو والتصريف.

2- أعلام المدرسة:

كان للاتجاهات التي ظهرت في الدرس النحوي ببغداد والتي تمثلت في الميل إلى آراء المدرسة الكوفية، أو الميل إلى آراء المدرسة البصرية، أو الانتخاب من آراء المدرستين بالترجيح بينهما والاجتهاد في استنباط آراء جديدة علماء يمثلونها، فمن أشهر من مثل الاتجاه الأول ابن كيسان (ت 299هـ) وابن شقير (ت 315هـ)، وابن الخياط (ت 320هـ)، ومن أشهر من مثل الاتجاه الثاني أبو القاسم الزجاجي (ت 337هـ)، وأبو علي الفارسي (ت 377هـ)، وتلميذه ابن جني (ت 392هـ) الذي تمثل أعماله تقدماً كبيراً في المنهج والأسلوب، حيث وجد كثيرٌ مما قرره قبلاً من أحدث المناهج اللغوية، ومن أهم العلماء الذين مثلوا للاتجاه الثالث الذي يعد بذرة نمو المدرسة البغدادية فنهجوا طريقها الخاص فيما يعتقد البعض، وهو الخلط بين المذهبين السابقين مع ميل أقوى إلى المدرسة البصرية نذكر الجرجاني (ت 471هـ)، والزمخشري (ت 538هـ)، وابن الشجري (ت 542هـ)، والأصبهاني (ت 543هـ)، وأبو البركات الأنباري (ت 577هـ)، والعكبري (ت 616هـ)، وابن يعيش (ت 643هـ)، والاسترابادي (ت 686هـ).⁽¹⁾

أما علّم المدرسة الذي ارتأينا استحقاقه بالدراسة في هذا الموضع الذي لا يسمح لنا بذكر جهود كل العلماء وآرائهم فهو ابن جني الذي خالف شيوخه وأساتذته في عدم المغالاة في التأويل، فقد خصص في الخصائص فصلاً يشترط فيه الملاحظة وعدم التعسف في التأويل، سماه (باب في ملاطفة الصنعة)، وفيه قال: "وذلك أن ترى العرب قد غيرت شيئاً

(1) - ينظر: علي القصيباتي، تاريخ المدارس النحوية، ص 7، 8.

من كلامها من صورة إلى صورة، فيجب حينئذ أن تتأتى لذلك وتلاطفه، لا أن تخبطه وتتعسف، وذلك كقولنا في قولهم، في تكسير (جرو) و(دلو)، (أجر) و(أدل) إن أصله (أجرو) و(أدلو)، فقلبو الواو ياء، وهو لعمري كذلك، إلا أنه يجب عليك أن تلاين الصنعة، ولا تغالها فتقول، إنهم من ضمة العين كسرة، فصار تقديره (أجرو) و(أدلو)، فلما انكسر ما قبل الواو، وهي لام، قلبت ياء، فصارت (أجري) و(أدلي)، وإثما وجب أن يرتب هذا العمل هذا الترتيب، من قبل أنك لما كرهت الواو هنا، لما تتعرض له من الكسرة والياء في (أدلي) و(أدلي) لو سميت رجلا بأدلو، ثم أضفت إليه، فلما ثقل ذلك بدأوا بتغيير الحركة الضعيفة تغييرا عبطا وارتجالا، فلما صارت كسرة تطرقوا بذلك إلى قلب الواو ياء تطرقا صناعيا".

3- خصائص المنهج البغدادي:

السماع: وهو الأصل الأول في أصول النحو العربي، يعرفه ابن الأنباري بقوله: "هو الكلام العربي الفصيح المنقول النقل الصحيح الخارج عن حد الكثرة إلى حد القلة".⁽¹⁾

ويعرفه السيوطي بقوله: "هو ما ثبت في كلام العرب من يوثق بفصاحته، فشمّل كلام الله تعالى وهو القرآن، وكلام نبيه صلى الله عليه وسلم، وكلام العرب قبل بعثته، وفي زمانه وبعده، إلى أن فسدت الألسنة بكثرة المولدين نظما ونثرا عن مسلم أو كافر".⁽²⁾

عرف عن البصريين سماعهم عن القبائل الثابت فصاحتها، فلم يأخذوا عن غيرها، وعرف عن الكوفيين اتساعهم في الرواية، فقد سمعوا عن كل العرب، ونحا البغداديون المنحى الكوفي نفسه، فلم يميزوا بين لغة وأخرى، ولم يفاضلوا بين القبائل، فكل اللغات عندهم محتج بها، وفي هذا يرى ابن جني أن لغات العرب على اختلافها حجة.⁽³⁾

(1) - ابن الأنباري، الإغراب في جدل الإعراب، ص 81.

(2) - السيوطي، الاقتراح، ص 39.

(3) - ابن جني، الخصائص، ج2، ص 12.

القياس: وقد عرفه بعض علماء العرب بأنه: "عبارة عن تقدير الفرع بحكم الأصل"⁽¹⁾، وأنه: "حمل فرع على أصل بعلّة وإجراء حكم الأصل على الفرع"، وحمل المجهول على المعلوم، وحمل ما لم يسمع على المسموع، وحمل الجديد من التعابير على ما اختزنته الذاكرة وحفظته من الأساليب المعروفة والمسموعة⁽²⁾، فصاغوا ما توصلوا إليه من فرضيات على شكل قواعد منطقية، لا يمكن خرقها، بل يقاس عليها، وإن اعترضتهم ظاهرة أو حكم لغوي، لا قاعدة له، قاسوه على القاعدة القانونية لما بينهما من تشابه معتبرين الأحكام المطردة أصلاً، والأخرى فروعا.⁽³⁾

4- الاحتجاج بالحديث الشريف:

لم يحتج البصريون ولا الكوفيون بالحديث إلا نادراً، لعلّة أنه قد يكون مروياً بالمعنى، أما نحاة بغداد فاتخذوا مصدراً أساسياً من مصادر السماع.

- الاحتجاج بشعر المولدين: المولدون هم الذين فاتهم عصر الاحتجاج وإن كانوا عرباً، وقد احتج أهل بغداد بشعرهم، خلافاً للبصريين والكوفيين، فأخذوا عن ابن برد، وأبي نواس وأبي تمام...

5- مسائل نحوية استقل بها نحاة بغداد:

تكرر قولنا في هذه المحاضرة أن أهل بغداد تميزوا في دراستهم للنحو بالانتقاء والاختيار مما جاد به البصريون والكوفيون، مما نفى عن نحوهم الاستقلالية والتميّز، لكن هذا لا يعني أن اجتهاداتهم قد خلت في جملتها من أي جديد، فالمطلع على مؤلفاتهم يتبين له أنهم قد استقلوا ببعض المسائل النحوية على قلتها، فهي مقارنة بما اصطفوه من نحو البصريين أو نحو الكوفيين قليلة جداً، وفيما يلي بعض منها:

(1)- الانباري، لمع الأدلة، ص 93.

(2)- مهدي المخزومي، في النحو العربي نقد وتوجيه، دار الرائد العربي، بيروت، ط2، 1986، ص 20.

(3)- محمد عيد، أصول النحو العربي، ص 83.

- إضافة (ونى) إلى الأفعال الناقصة، وهي بمعنى (زال)، تقول: ما ونى زيد قائماً، أي مازال زيد قائماً.

- يعتبر الزجاجة كان وأخواتها حروفاً لا أفعال، واعتبر (قارب) من أفعال المقاربة، و(إلا أن يكون) من عبارات الاستثناء.

- أجاز الزجاجة أعمال إن وأخواتها إذا دخلت عليها ما الكافة، مثل (إنما زيدا قائماً) بدلاً من (إنما زيد قائماً).

- نفى ابن جني العلل الثواني والثالث، واكتفى بالأول.

خلاصة:

تبين بعد البحث والدراسة أن النحو البغدادي نحو انتخابي، اختار أصحابه ما مالوا إليه من آراء بصرية أو كوفية، فلم يكن لدراسة النحو عندهم منهج مستقل، يؤهل جهودهم لأن تشكل مذهباً جديداً أو مدرسة مستقلة، لذلك نرى أن النحو في العربية قد عرف مدرستين مهمتين ساهمتا في تطوره وازدهاره، كل بمنهجها الخاص والمغاير، ولم يعرف بعدهما مدرسة، رغم الجهود الجبارة التي قدمها نحاة بغداد، فحسبهم أنهم قد أذابوا جليد العداوة بين العالمين النحويين الكبيرين.